لبنان أيقونة التاريخ والحضارة

د. هاني حسن حوماني(*)

المقدمة

لبنان بلد الحضارات المتعدّدة، هو عريق بتاريخه من خلال بعض الشّواهد والآثار التي خلّفتها الشّعوب الّتي تتالت السّيطرة عليه منذ فجر التّاريخ وحتّى يومنا هذا.

لم تقم مملكة قويّة في الشرق، أو الغرب، إلّا وطمعت بالسّيطرة على لبنان لأهميّته الاستراتيجيّة باعتباره مفتاح الشّرق.

إن جمع الأخبار ووصف الأحداث عبر العصور التاريخية في لبنان، وذكر بعض الشواهد من خلال ما خلّفته هذه الحضارات التي قدمتها الشعوب المتتالية والتي توطّنت لبنان للحضارة الإنسانية، إن جميع هذه الأخبار وتدوين هذه الاحداث ذات المغزى التاريخي في قصة متسلسلة، لهي محاولة نقوم بها لإيصال المعلومات إلى القارئ بعد تدقيقنا وتحليلنا للمصادر والمراجع. حيث يتجلّى لنا بأنّ لهذه المنطقة شخصية خاصة بها فرضتها طبيعتها الجبلية وقربها من البحر واتجاهها نحو الغرب وخصائص ساكنيها. إن الاحداث التي لها صلة وثيقة بما يجري في لبنان المعاصر والأحداث التي كان لها الأثر في السياسة العالمية تعد مرآة لما شهده لبنان خلال العصور القديمة، ونجد أن هذه الأحداث على جانب عظيم من الأهمية خاصّة عندما نقوم بربطها بالشؤون اللبنانية والحقبة التي شهدها في تاريخه الحديث.

في العصور القديمة كانت أحداث لبنان التاريخية وثيقة الصلة بتاريخ مصر وبابل وآشور وبلاد الكلدان وفارس ومقدونيا وروما. أما في العصور الوسطى فقد كان تاريخ لبنان جزءًا من تاريخ البيزنطيين وتاريخ العرب والمسلمين، وفي العصور الحديثة كان تاريخه جزءًا من تاريخ الأتراك العثمانيين والفرنسيين. فقصة لبنان عبر التاريخ قصة العالم المتمدّن لكن على نطاق صغير.

وسوف نعرض في هذا البحث عدة مباحث للتعرّف على واقع لبنان السياسي والاجتماعي في ظل الحضارات الّتي توالت عليه خلال الحقب التاريخية بشكل متسلسل بدءا بأقدم حضارة حتى قيام دولة لبنان الكبير.

(*) دكتوراه في التاريخ من جامعة بيروت العربية.

أولاً: لبنان القديم

١ – المصريون القدماء (الفراعنة) في لبنان ٣٠٠٠ق.م:

عرفت مصر في التاريخ القديم مراحل سياسية وحضارية هامة. وذلك منذ الألف الثالث ق.م. ويهمّنا من تاريخ مصر الحافل ما يتعلّق بالشأن اللبناني.

ويذكر المؤرخون أن هناك الكثير من الفراعنة المصريّين كان لهم الأثر البارز في لبنان.

ومن سماته تبادل الهدايا بين الفراعنة المصريين وأمراء المدن اللبنانية، وهذه الأخبار موجودة في الوثائق والآثار المحفوظة في المتاحف المصرية واللبنانية، وكان لبعض الفراعنة المصريين أطماع بالسيطرة الكاملة على الساحل اللبناني، وهذا ما يسرده لنا التاريخ عن الفرعون المصري رعمسيس الثاني الذي تمكّن من إخضاع كابونا (جبيل) مدينة الأسرار، وباروتا (بيروت)، وصيدون (صيدا)، وسربوتا (الصرفند)، وتسار (صور)، مأوى الصيادين... وهناك وثيقة هامّة موجودة في المتحف البريطاني تؤكّد هذه المعلومات.

أما الفرعون تحوتمس الثالث، فقد احتل أرض كنعان، وكان فيها ١١٩ مدينة، على ما جاء في النقوش التي سجّلت غزوات هذا الفرعون. ولعل أبرز ما خلّفه المصريون في لبنان بعض الشواهد المعمارية والفنية والتماثيل الموجودة في معابد جبيل. وبعض قطع الحلى والهدايا الموجودة في المتحف الوطني اللبناني.

وقد استمرت سيطرة المصريين القدماء على لبنان حتى قدوم الحثيين في الألف الثاني ق.م.

٢ – الحثيّون: ٢٧٥٠ ق.م:

أ – أصل الحثيين ومواطنهم:

تتضارب آراء المؤرخين حول أصول الحثيين، ولكن من المتعارف عليه أنها تعود بأصولها إلى بلاد اليونان وما وراء جبال آسيا الوسطى. وقعت بينها وبين جيرانها سكان بحر إيجه، صدامات متعددة، وصراعات عسكرية، نتج عنها رحيل هذه القبيلة باتجاه بلاد ما بين النهرين باحثة عن موطئ قدم لها مع البابليين القدماء أو على حساب الفينيقيين وحلفائهم المصريين على ساحل المتوسط وفي العمق السوري. وكان شعار الحثيين "النسر المجنّح"، وقد جعلوا عاصمتهم مدينة "حتوساس" حيث تقوم مدينة "بوغاز كوي" اليوم.

ب – التوسع الحثي: ٢٠٠٠–١١٢٠ق.م:

وأقدم ملوك الحثيين كان "بامبا" الذي حكم البلاد حوالي عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد، وقد تمدّد الحثيون وتوسّعوا حتى وصلوا إلى البحر المتوسط عام ٢٠٠٠ ق.م. وفي الشرق وصلوا إلى بابل في بلاد ما بين النهرين، وحلب وسوريا، كما استولى ملكهم "سيليوليونا" على عاصمة الميتانيين ومدينة قادش. وهدّد ملكهم "عزيزو" الساحل الفينيقي بكامله، ما استدعى توجيه ملك جبيل "رب عدي" رسائله المعروفة إلى حلفائه المصريين لردّ الخطر الحثّي عن بلاده. وبمساعدة المصريين، استطاع الفينيقيون إيقاف الزحف الحثي عند أبواب البترون وأسوارها المنيعة. وكان آخر ملوك الحثيين «بيزيريس» الذي قضى عليه "سرجون" ملك الأشوريين واحتل عاصمة الحثيين كركميش عام ٢٠١١ ق.م.

٣ – الأشوريون ١١٢٠ – ٦٢٦ق.م:

أ – أصلهم:

على مقربة من بابل، كانت تعيش مجموعات متفرّقة أتت من البوادي في الخليج العربي باتجاه نهر دجلة فاحتلت مدينة أشور وجعلتها عاصمة لها.

استقل الأشوريون بزعامة ملكهم أشور الذي احتل مدينة بابل في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتحت شعار " الثّور المجنّح" قاد ملوك أشور حملات متواصلة على فينيقيا ومعظمها مدوّن على قبور ملوكهم، ومنهم "تغلت فلّاسر" سنة ١١٢٠ ق.م. الذي خطّ على تمثاله الموجود في لندن: «تغلت فلّاسر، ملك أشور ملكت البحر الكبير (المتوسط) (الغرب الفينيقي) حتى بحر أرض نهري، أي البحر الأسود». وقد ذكر أخشاب الأرز التي أخذها من لبنان والتي وجدت بقايا سالمة حتى اليوم. كما دوّن "أشور نزيربال" فتوحاته على ناووسه فقال: «أشور نزيربال الملك العظيم ملك البلاد من ضفة دجلة إلى بلاد لبنان، وتخضع لسلطته البحار الكبيرة وكل البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها...» واكتشفت كتابة أخرى لزيربال نفسه تقول: «أخذت نواحي لبنان، وذهبت نحو بحر فونيقي وترنّمت على أعالي الجبال». هذه الكتابة تؤكد أن الجبال اللبنانية كانت آهلة بالسكان والهياكل، وأن اسم لبنان ليس حديث العهد إطلاقاً بل عرفته الفتوحات القديمة. كما أن «شلما نصّر» غزا أيضاً فينيقيا، وقد جاء في كتابه على صخور نهر الكلب أن «تغلت فلّاسر»، أيضاً غزا لبنان مرتين وخضع له «خمسة وعشرين ملكاً»، والملك سنحاريب الأشوري أيضاً غزا جبيل واستسلم له ملوكها، هذا النقش أيضاً موجود على صخور نهر الكلب.

ب – نهاية الحكم الأشوري:

في أواخر أيام الملك "أشور بانيبال" الذي حكم بين العامين ٦٦٨– ٦٢٦ ق.م.

ضعفت الإمبراطورية الآشورية، لم يمض عليها عقد من الزمن حتى انتزعت قبيلة «كلدي» التي ينتسب إليها الكلدانيون مدينة بابل. وراحت تتقدم نحو الخليج الفارسي، ولم ينفع أشور استنفار ملوك المنطقة لمساعدتها في مواجهة هؤلاء وفي طليعتهم المصريين. فسقطت بأيدي الكلدانيين والميدنيين الفرس.

٤ – الكلدانيون (البابليون الجدد) ٦٢٦–٥٦١ق.م:

أ – أصلهم:

الكلدانيون من أبناء قبيلة «كلدي»، وأول عمل قاموا به هو إعادة تعمير بابل التي دمّرها سنحاريب الاشوري، وجعلوها عاصمة البلاد وانتسبوا إليها وصاروا يُعرفون بالبابليين الجدد. بعد الانتصار على الآشوريين واحتلال عاصمتهم أشور زحف الكلدانيون باتجاه سوريا وأقاموا دولة كبرى فيها واحتفظوا بالسيطرة عليها حتى مجيء اليونان.

لقد اهتم «نبوخذ نصر» بتعمير بابل ولم يكتفِ باحتلال الأراضي السورية بل تعدّاها إلى الساحل اللبناني واحتلّه بعد حصار دام ثلاثة عشر سنة لصور (من ٥٨٥ إلى ٥٧٢ ق.ف.) وكان نبوخذ نصّر من جملة الذين سطوا على أرز لبنان.

بعدما احتل نبوخذ نصّر صور، أخذ ملكهم وبعض وجهائها رهينة، وجعل «بعل» ملكاً عليها سنة ٥٧٣ ق.م. فثار أهل صور على بعل، وخلعوه وأقاموا حكماً جمهورياً وكان أول حكم شعبي في العالم. وسمّي رئيس الجمهورية «شفط» واللفظة الكلدانية، ومعناها «الحاكم أو القاضي» لكن هذا النوع من الحكم سقط بعد أربعة أشهر من قيامه.

استطاع نبوخذ نصّر احتلال مصر في العام٥٦٣ ق.م. ثم أصيب بالجنون وتولّى الحكم في صور بعده حيرام الرابع.

ب – نهاية الكلدانيين:

وبموت نبوخذ نصّر عام ٥٩١ ق.م.، بدأ نفوذ الكلدانيين يتقلّص. واختير "نابونيوس"

لخلافته وقد ذكر أن نابونيوس استخرج الحديد من لبنان، لكنّه لم يتمكّن من النّهوض بالإمبراطورية. ثمّ أتى من أواسط الفرس، قورش العظيم، وقد استسلم الكلدانيون له بعد ست سنوات على موت نبوخذ نصّر.

وقبل الحديث عن الفرس لا بدّ من الإشارة إلى الشعب الآرامي الذي استقر في البلاد السورية مدة قرنين من الزمن سيطر في خلالها عن طريق التّجارة على كامل أسواق المنطقة.

٥ – الفرس الميديون: ٥٢١–٣٣٣ق.م.:

أ – أصل الفرس ومواطنهم الأصلية:

الشعوب الفارسية أو الميدية هي من العنصر الهندي الأوروبي. في العام ١٨٠٠ ق.م انقسم الفرس إلى فريقين، اتجه الاول جنوباً نحو الهند واتجه الثاني نحو الغرب إلى الجبال المشرفة على بلاد ما بين النهرين، وعُرف هؤلاء بالإيرانيين. وقد اشتهر بين الإيرانيين قبيلتان: إحداهما تدعى «الفرس» والثانية «مادي».

وأوّل قبيلة شكلت حكماً هي قبيلة «إنشان» بقيادة «قورش» ٥٥٠ – ٥٢٨ ق.م. ما إن استلم "قورش" الحكم حتّى راح يعمل للاستيلاء على الممالك المواجهة له، فهاجم «كرسي» ملك «ليديا» واستولى على عاصمتها «ساردس» عام ٥٤٦ ق.م.، ثم اتجه جنوباً فاحتل السواحل الآسيوية واقتحم بابل عاصمة الكلدانيين واستولى عليها ومات في العام ٥٢٨ ق.م. بعدما أصيب بالجنون، تاركاً لخلفائه أعظم إمبراطورية في الشرق دامت أطول مدة أي ٢٥٠٠ سنة.

احتل الفرس لبنان بقيادة قمبيز إبن قورش، فاحتل الساحل اللبناني، وقدّم له اللبنانيون السفن «نكاية» باليونانيين الذين كانوا يزاحمونهم تجارياً.

وتوالى على الحكم عدة ملوك كان آخرهم «داريوس». قطع الفرس أشجار الأرز من غابات لبنان وشحنوها بحراً إلى بلادهم. وقد دوّن داريوس على إحدى الباخرات: «الخشب الذي يُدعى نورينا (أي الأرز) مصدره جبل يدعى لبنان»، ولم يترك الفرس في لبنان سوى بعض التماثيل واللوحات والنقود الموجودة في المتحف الوطني اللبناني وأيضاً في متحف الجامعة الأميركية في بيروت.

٦ – الإغريق (اليونان): ٣٣٣–٦٤ ق.م.:

أ – أصلهم:

يعود الشّعب الإغريقي في أصله إلى مجموعة قبائل من الجنس الهندي – الأوروبي.

ما أن تولى الفتى الطموح الإسكندر المقدوني الملقّب بذي القرنين الحكم خلفاً لأبيه فيليبس، حتى راح يخطط للقضاء على دولة الفرس، وجرت المعركة الحاسمة في العام ٣٣٣ ق.م. بينه وبين ملك الفرس «داريوس» الذي أصيب بهزيمة نكراء من قبل الإسكندر، ثم تابع زحفه باتجاه السواحل اللّبنانية، ولمّا وصل إلى صور أقفل أهلها باب المدينة في وجهه واستعدّوا للمقاومة، فما كان منه إلّا أن حاصر المدينة وراح يهدم بيوت صور البرّيّة، وحاصر صور البحرية بحرًا وبرًا. ثم تابع زحفه باتجاه السواحل اللبنانية، ثم توسّع في حملته حتّى احتلّ فلسطين ومصر.

وبعد وفاة الإسكندر، تقاسم قادته الثلاثة الكبار ملكه الشاسع، وأصبح كل منهم رأساً لسلالة حكمت بلادنا حتى مجيء الرومان: السلالة السلوقية، وعلى رأسها القائد «سلوقس» وقد حكمت لبنان وسوريا. وسلالة البطالة وعلى رأسها " بطليموس" وقد سيطرت على مصر ثمّ على لبنان بعد السلوقيين. والسلالة الأنطيغونية التي كان على رأسها القائد

«انطيغونس» وقد حكمت شرقي آسيا.

ويروي المؤرّخون أن " أنطيغون " خليفة " الإسكندر"، دخل لبنان لخنق الثورة التي اشتعلت في صور بعد عودة أبنائها إليها، ضد اليونانيين الذين خرّبوا مدينتهم وعهد إليهم أن يقطعوا من أرز لبنان، ونقلوا الخشب المقطوع إلى مصانع طرابلس وصيدا وجبيل، وكانت سقوف الهياكل تصنع من هذا الخشب في أواسط القرن الرابع ق.م. ومن المشهور أن عمر إحدى أشجار الأرز في غابة بشرّي ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة. هذا يفسّر لنا تزاحم العالم القديم، من المصريين إلى البابليين، والفرس واليونانيين، على قطع أرز لبنان وتزيين قصورهم ومعابدهم بأخشابه.

الآثار التي تركها اليونان في لبنان هي عبارة عن نواويس ولوحات وأنقاض هياكل وأدوات موزعة في معظم بلدان وقرى لبنان. أما العلاقات اللبنانية اليونانية والتفاعل الحضاري بين الشعبين فكان له وجهان، أحدهما أسطوري ديني وآخر تاريخي تجاري.

ثانياً: لبنان الحضارة

١ – الحضارة الفينيقية وتأسيس المدن:

قسّمت الممالك الفنيقية القديمة إلى ثلاثة أقسام:

أ – «فينيقيا البحرية»، وتشمل الساحل والمدن الممتدة من اللاذقية في سوريا شمالاً إلى صور جنوباً.

ب – «فينيقيا الداخلية»، وتشمل جبال السلسلة الغربية، وبعلبك، ودمشق والمدن السورية.

ج – «الساحل الفينيقي الفلسطيني»، ويمتد بين الناقورة وصحراء سيناء.

ومن بين هذه الفينيقيات الثلاث، اشتهرت فينيقيا البحرية المعروفة بـ «فينيقيا لبنان»، أمّا أهم المدن التي تتألف منها فينيقية لبنان فهي: «أرواد» عاصمة «الأروادیين من بني كنعان»، وكانت جالياتها تقيم في طرابلس، وتشارك مع جاليات صيدا وصور.

د – عمريت، التي تعتبر أقدم وأول مركز سكني عرف حضارة زاهرة على ذلك الساحل الممتد من طرابلس إلى خليج الإسكندرونة.

هـ – عرقا: تقع في الأراضي اللبنانية جنوبي النهر الكبير الجنوبي، وكانت عاصمة مملكة تمتد من النهر الكبير إلى طرابلس. إن الفينيقيين أسسوا أكثر من ٢٥ مدينة في لبنان، وتبقى الأبجدية الفينيقية أم الحرف واللّغات، ولولا هذه اللغة لظلّ الإنسان على همجيته حتى اليوم. وهذه الحروف هي: (أبجد – هوّز – حطّي – كلمن – سعفص – قرشت)، وقد زاد العرب عل هذه الحروف ستة حروف جديدة هي: (ثخذ – وضغط)، فصارت ٢٨ حرفاً ولا تزال على ما هي عليه حتى اليوم.

٢ – الرومان: ٤٥٠ق.م. حتى عام ٦٤ق.م.:

احتل ملك الرومان «بومبيوس» الساحل اللبناني في العام ٦٤ ق.م. وكان معظم سكانه يعيشون في المدن الساحلية وفي السفوح التي تعلو أكثر من ٥٠٠ متر عن سطح البحر. بالإضافة إلى قرى قليلة وصغيرة في أعالي السلسلة الغربية وسهل البقاع، وفي الشمال كانت تعيش جماعات من الأيطوريين، أمّا في الجنوب فكانت تقيم جماعة ذكرها اليعقوبي في تاريخه، من عرب بني قريش اليمنيين وخاصة بجوار صيدا، لذلك رحّب اللبنانيون بالقائد المطل عليهم من الشمال باعتباره البطل الذي حطّم الغطرسة اليونانية.

بعد "بومبيوس" واحتلاله الساحل اللبناني، فرّ الأيطوريون إلى البقاع، وجعلوا عنجر عاصمتهم، وراحوا يغزون منها السواحل اللبنانية بين الحين والآخر، ولا سيما جبيل

وبيروت وحتّى تم ترحيلهم نهائياً عن لبنان. تابع الرومان سياستهم بإخراج الغرباء من لبنان، فرحّلوا بني قريش اليمنيين عن صيدا، والنبطيين الذين كانوا قد أسسوا مملكة لهم في البتراء وفتح ملكهم الحارث بعلبك سنة ٨٥ ق.م.

وتتالى حكم القياصرة الرومان على لبنان واحداً تلو الآخر، وخلال العهد الروماني، ظهرت الديانة المسيحية، وما إن ثبّت ملوك الرومان أقدامهم في بلادنا، حتى وجّهوا كلّ اهتمامهم إلى بيروت وجعلوها ولاية رومانية وتابعة لروما مباشرة. ومع حلول القرن الثالث م. بوشر ببناء معهد كبير يتعلّم فيه كبار القادة وحكام الشرق، ورجال الفكر، الأنظمة والقوانين الرومانية. وكان المرجع الاول للتشريع الروماني «أوليبيانوس» وهو من أعظم واضعي الحقوق الرومانية والتي لا تزال تدرّس مبادئها حتى اليوم في معاهد الحقوق في معظم أنحاء العالم، واشتهر الرومان في مجال الفكر والتّشريع، ولمعوا في جمع الأنظمة والشرائع والتي بقيت حتى اليوم مرجعاً لرجال القانون ودارسي الحقوق في العالم. وكان الأمبراطور «يوستنيان» يلقب بيروت بـ «أم الشرائع ومرضعتها»، وكانت بعلبك ذات شأن كبير عند الرومان جعلوها «مكّتهم» بسبب الهياكل الموجودة اليوم في بعلبك والتي كانت تقوم على أساس هيكل فينيقي قديم، وكان الزائرين يحجّون إلى «مكة الرومانية» في بعلبك وهياكلها حيث تعلو الأعمدة وتتزخرف، وقد تمّ بناؤها بعد مرور نحو قرنين من الزمن فجاءت تحفة فنية معمارية قلّ نظيرها.

٣ – البيزنطيون ٦٣٦م:

– انقسام الأمبراطورية الرومانية إلى قسمين:

القسم الغربي: وجعل عاصمته روما، وتمتد من إيبريا (إسبانيا) غرباً إلى حدود آسيا الصغرى شرقاً.

القسم الشرقي: وجعل عاصمته القسطنطينية، او بيزنطة، واسطنبول حالياً، وتمتد من حدود آسيا الصغرى الغربية والبحر الأسود حتى روسيا شمالاً وبحر قزوين والخليج الفارسي شرقاً ومصر والبحر المتوسط غرباً.

وقد حاول ملك القسطنطينية «يوستنانوس» من القرن السادس م. إعادة توحيد الإمبراطورية الرومانية لكن فشل، وبعده استمر انحطاط الدولة البيزنطية وأصبحت عرضة للسقوط.

واشتد الصراع على حدود الدولة البيزنطية بين الفرس والعرب حتى تمّ سيطرة الفرس على سوريا في العام ٦٠٨م، وعلى لبنان في العام ٦٠٩م ثم سقطت مدن فلسطين وآسيا الصغرى حتى مشارف البوسفور بيد الفرس.

ثالثاً: لبنان في ظلّ الحكم الإسلامي

١ – الفتح العربي (٦٣٦–٦٣٧م)

بعد أن قويت شوكة المسلمين العرب، فتحوا بلاد الشّام وانتصروا على الرّوم في معركة اليرموك عام ٦٣٦م. حيث خضعت المنطقة بكاملها للحكم العربي الإسلامي، وتمّ فتح دمشق حاضرة الرّوم آنذاك وبعلبك الّتي أصبحت قاعدة إسلامية ينطلق منها الجيش الإسلامي لفتح باقي المناطق. وفي عام ٦٥٥م. وخلال الحكم الأموي قامت معركة الصواري بين الجيشين الرّومي والإسلامي وسيطر المسلمون بأسطولهم البحري الكبير على منطقة شرق البحر المتوسط والّذي أصبح بعد ذلك بحيرة إسلامية بحتة.

العباسيون عام ٧٤٩م:

بعد مقتل آخر خلفاء الأمويين انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى الكوفة في العراق، ثم

أصبحت بغداد مركزاً للعباسيين.

ورث العباسيون العداء للروم والفرس عن الأمويين، وقد جرت عدّة حملات بين هؤلاء، وانتهت بإخضاع الولاة اللبنانيين لنفوذ والي الشام العباسي، وسميت البلاد اللبنانية والسورية البلاد الشامية، ومدنها بالشامات، وأخذ العباسيون يُسكنون القبائل الفارسية والعربية في سواحل لبنان وسهل البقاع والجنوب، ثم اشتبكوا مع امرائه في عدة معارك، واستمرت الدولة العباسية حتى قيام دولة المماليك واستقلالها بالحكم عام ١٢٥٨م.

ب – الفاطميون ٩٠٩م:

لقد أسّس الدّولة الفاطمية عُبيد الله الذي يدّعي نسبه إلى السيدة الزهراء(ع)، وهذا سبب التسمية الفاطمية، وبعد فتح مصر عام ٩٦٩م انتقل الفاطميون إلى لبنان وضمّوا السواحل اللبنانية السورية، ثم احتلوا الشام ووصلوا في فتوحاتهم إلى العراق، وقد امتدت دولتهم بين العراق شرقاً والأطلسي غرباً. ومن أبرز خلفائهم الحاكم بأمر الله الفاطمي.

ج – لبنان في ظل الحكم الصليبي ١٠٩٧–١٢٩٠م:

للحروب الصليبية عدّة أسباب منها دينية وسياسية، أمّا الدينية فكان خوف الصليبيين من المسلمين حكام الشرق، ولعلّ أبرز أهداف تلك الحملات الصليبية على الشرق هو منع تقدّم المسلمين باتجاه أوروبا لاحتلال القسطنطينية. أما الأسباب السياسية، فهي تنحصر في الأزمات الاقتصادية التي نشأت في الغرب، وضربت الشعب بضائقة مادية مستحكمة ـ بالإضافة إلى تنازع الأمراء على السلطة ورغبة ملوك الغرب في السيطرة على ممالك جديدة لهم في الشرق بحجة حماية الأراضي المقدّسة، وما إن استقر المقام بالصليبيين حتى عادوا لاحتلال الساحل اللبناني لأهميته البالغة، باعتباره الطريق البرّي الوحيد إلى القدس في ساحل المتوسط، ومن أبرز القلاع الصليبية في لبنان هي: قلعة المسيلحة في البترون، قلعة صيدا البحرية، قلعة أرنون الشقيف.

د – لبنان في ظل الحكم الأيوبي: ١١٨٧–١٢٥٨م:

سيطر الأيوبيون على لبنان مدة زمنية تمتد من سنة ١١٨٧م حتى عام ١١٩٧م، وفي آب ١١٨٧م حاصر صلاح الدين الأيوبي الكردي الأصل بيروت أيام الصليبيين لمدة ٨ أيام سيطر بعدها على المدينة بعد أن أعطى المسيحيين فيها كتاب الأمان، وعيّن حاكماً على المدينة (سيف الدين علي الهيطاري). لم تدم هذه الحالة طويلاً لأن بيروت كانت تعتبر موقعاً هاماً بالنسبة إلى الصليبيين لوقوعها على الطريق البري المؤدي إلى القدس، لذا استعادوها في ٢٣ تشرين الاول سنة ١١٩٧م. وبقيت بأيديهم حتى سقطت بأيدي المماليك سنة ١٢٨٨م.

هـ – الحكم المملوكي للبنان ١٢٦٠–١٥١٦م:

بعد ان تسلّم المماليك مقدرات الشرق، وسيطروا على مصر وفلسطين وسوريا الداخلية، عام ١٢٥٠م، وعمدوا إلى الاستيلاء على طرابلس وبيروت وصيدا وصور وحيفا وطرطوس، وباشروا في ممارسة تنظيم إداري متقن، أخذوه عن الدولة الأيوبية التي وفّقت في الجمع بين التقاليد الإدارية للدولة الفاطمية من جهة، وتقاليد المماليك السلجوقية من جهة ثانية. قاموا بتقسيم بلاد الشام إلى ست مقاطعات أو نيابات. وتأتي في الأهمية بعد نيابة حلب طرابلس، وكان نائبها يلقب بكافل المملكة الشريفة الطرابلسية. بدأ الحكم المملوكي للبنان

عام ١٢٦٠، واقتصرت سيطرتهم في البداية على سهل البقاع وبلاد الغرب التنوخية، في حين كانت معظم المناطق اللبنانية في الجنوب والساحل بيد الصليبيين.

و – لبنان في ظل الحكم العثماني ١٥١٦–١٩١٨م:

وفي العام ١٥١٦م. سقطت بلاد الشام بأيدي العثمانيين إثر معركة مرج دابق الشهيرة، والتي قضي خلالها على الوجود المملوكي في المنطقة. وبدأت رحلة جديدة من التاريخ، قام فخر الدين المعني الأول الذي يمكن اعتباره المؤسس للكيان الوطني اللبناني، على رأس وفد من أمراء لبنان لمبايعة السلطان سليم عندما حلّ في الشام. وكان بينهم أمراء من آل تنوخي اليمني وبني عساف أمراء كسوران. وقد أعفى السلطان سليم اللبنانيين من الخدمة العسكرية واكتفى بأخذ الضرائب منهم، ومنحهم الاستقلال الداخلي وأبقى الأتراك التنظيمات الإدارية التي كانت قائمة في أيام المماليك. وحوّلوا نياباتهم إلى ولايات يحكمها والٍ تركي (مسيحي) مع العلم أنّ «الحكم كان إسلامياً»، بعد تعديلات طفيفة عليها. وأقرّوا بمسح الأراضي لتحسين جباية الضرائب وجعلوا القسم الأكبر من سهل البقاع أملاكاً أميرية. ثم جعلوا المذهب السنّي دين الدولة الرّسمي. وصار الشيعة في المرتبة الثانية، وشعر المسيحيون، ولأول مرة أنهم أحرار في التنقل والتصرّف تحت حكم المسلمين. وفي بداية القرن السادس عشر، وسّعوا أماكن تمركزهم، وغادروا الشمال والجبل وحلّوا في كسروان محل الشيعة والدروز الذين غادروه على أثر حملة المماليك والتنكيل بهم سنة ١٣٠٥م. كان الصراع بين الدول الأجنبية يزداد على الأراضي اللبنانية، وتقف الدولة العثمانية عاجزة عن وقف الصراع ورد أخطاره، فتلتزم بإعطاء المشاغبين امتيازات في مجالات متنوّعة على حساب مصلحتها، وعُرف الحكم العثماني بالنظام الإقطاعي وتفشّت الرشاوى في أثناء حكمهم، هذا بالإضافة إلى احتكار زراعة التبغ ومنحها للشركات الأجنبية.

الدولة العثمانية التي حكمها تسعون سلطاناً خلال ٤٠٠ سنة دول الشرق وبعضاً من الغرب (١٥١٦–١٩١٦م) قاسى رعاياها ما يقاسيه أي شعب آخر من الظلم والاضطهاد والابتزاز، وسوء الحكم... وفي النهاية انهارت وانتهت كأضعف دولة من دول الأرض، وامتص دماءها هذا الأخطبوط الملّقب بالامتيازات الأجنبية كما الجراثيم تفتك بالأجسام الصحيحة... ومع جلاء آخر جندي عثماني من هذه البلاد التي حكمها العثمانيون بكل ما فطروا عليه من رشوة، وفساد، وظلم واستبداد، فرسّخوا المحسوبية والروح الإقطاعية في دوائر الدولة، ودمّروا كل مقوّمات البلاد.

٢ – الانتداب الفرنسي للبنان: ١٩٢٠–١٩٤٣م:

احتلّ الحلفاء في شهر أيلول سنة ١٩١٨ فلسطين، بعدما انطلقوا من قاعدتهم في مصر، وراحوا يعدّون العدّة لاحتلال سوريا ولبنان (وكانت الجيوش العربية آنذاك بإمرة الأمير فيصل بن الشريف حسين يعاونهم عن طريق الأردن). ولما دخل الفرنسيون لبنان، أخذ اللبنانيون يعقدون الاجتماعات للبحث عن نظام جديد للبنان. وكان المسلمون بأكثريتهم الساحقة إلى جانب دمج لبنان بسوريا.

بينما كانت الأكثرية المسيحية تطالب بالاستقلال عن سوريا تحت الانتداب الفرنسي. حينها صدرت وثيقة دولية عن عصبة الأمم لتحديد دور الدولة المنتدبة، تم وضعها في لندن عام ١٩٢٢م، ووضعت موضع التنفيذ في أواخر أيلول ١٩٢٣م. وهي تتألف من مقدمة و٢٠ مادة. وأبرز ما جاء في مضمون الصك:

– يتوجب على فرنسا حماية الأراضي السورية واللبنانية وصيانتها.
– إلغاء الامتيازات الأجنبية التي كانت مطبّقة في العهد العثماني.
– اهتمام الدولة المنتدبة بالآثار من حيث التنقيب عنها والمحافظة عليها.

دام الانتداب الفرنسي على لبنان ٢٣ سنة وهو يقسم إلى مرحلتين:
– مرحلة الحكم الفرنسي المباشر (عسكري مدني) من عام ١٩٢٠م إلى عام ١٩٢٦م.
– مرحلة الحكم الوطني في ظل الانتداب من عام ١٩٢٦م إلى عام ١٩٤٣م.

وأول عمل سياسي تمّ في عهد الانتداب، كان إعلان دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠، وأسباب قيام دولة لبنان الكبير كانت مطالبة اللبنانيين، منهم من طالب بدولة موسّعة واستقلال تام، وبعضهم طالب باستقلال لبنان الإداري بالتعاون مع سوريا. وبعد تردّد فرنسا وقيام نظام الانتداب، وبعد تعيين الجنرال غورو مندوباً فرنسياً في الشرق، وإنهاء حكم فيصل في سوريا، بعد موقعة ميسلون عام ١٩٢٠، وبعد أن أثبت التكوين الجغرافي للمتصرفية أنه غير قابل للحياة، اقتنعت فرنسا بضرورة إنشاء دولة لبنانية موسّعة ما سمي بدولة لبنان الكبير، فأصدر غورو قرارات بحل متصرفية جبل لبنان، وولايتي بيروت وطرابلس وفصل البقاع عن ولاية دمشق، وبعد ضم الأقضية التي سلخت عن لبنان أيام المتصرفية، اتسعت مساحة لبنان من ٣٥٠٠ كلم^2 إلى ١٠٤٥٢ كلم^2 وازداد عدد سكانه من ٤١٤ ألف نسمة إلى ٦٢٨ ألف نسمة. كما دعا غورو اللّبنانيين لاختيار علم البلاد لكن الجمعيات ذات الاتجاه الفرنسي، اختارت العلم الفرنسي بألوانها المثلثة، بإضافة أرزة إلى قسمه الأبيض الأوسط. وظل هذا العلم معتمداً حتى تم رسم علم جديد للبنان في جلسة الاستقلال النيابية الشهيرة، وذلك في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣م.

حكم لبنان أحد عشر مفوضاً سامياً خلال ثلاثة وعشرين عاماً بين دولة لبنان الكبير والاستقلال اللبناني، وكان أول المفوضين الساميين فرنسوا جورج بيكو الذي شارك زميله مارك سايكس الإنكليزي في وضع بنود الانتداب الذي قرر شكل الحكم ومصير البلاد. وكان آخر المفوضين الساميين على لبنان «جان هللو» (مندوب عام) من ٩ حزيران ١٩٤٣ إلى ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣، وانتهى حكم المفوضين الساميين في اليوم الذي خرج فيه معتقلو راشيا، ليحتفل الشعب اللبناني بعيد الاستقلال في الثاني والعشرين من تشرين الثاني ١٩٤٣.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث، وبعد أن كوّنا فكرة، ولو موجزة، عن الشعوب التي تعاقبت على الحكم في لبنان، وعن تأثيرها السياسي والحضاري والديني، أصبح بإمكاننا أن نستخلص الثوابت التالية حول تأسيس الكيان اللبناني.

إن الشرق بصورة عامّة ومنطقتنا بالذات؛ هي مهد الديانات الوثنية والسماوية على حد سواء. لذلك سعت إلى تكوين ممالك ترتكز على أسس دينية أكثر من سعيها إلى تشكيل كيانات ومجتمعات وأوطان قومية وطنية.

إن اسم لبنان والشعب اللبناني كان يطلق على بقعة معينة كانت تتسع وتضيق حسب قوة حكامها ونفوذها. إن الاسم «الفينيقي» الذي أطلق من قبل اليونان في القرن العاشر ق.م. على سكان الساحل اللبناني ليس بسبب حلول شعب أو هجرة جديدة سامية أو حاميّة حلّت في أرضه، بل هو لقب للتاجر اللبناني الذي حمل إلى العالم مع سلعه التجارية الأبجدية والحضارة.

لم يكن المجتمع اللبناني يوماً مجتمعاً عسكرياً يسعى إلى السيطرة والتوسع، بل شكّل عبر تاريخه كياناً مستقلاً ومنفتحًا، يسعى إلى لعب دور حضاري واقتصادي فاعل في محيطه.

إن لبنان يتميز بطابعه الحضاري وتعدديته المذهبية وهو لجميع أبنائه، فلبنان إذن صاحب تراث وتقاليد تاريخية هي جوهر كيانه، حيث كان دائماً همزة وصل بين الشرق والغرب وبلد الحضارة والتواصل بين الشعوب وما من مملكة قوية أتت من الشرق أو الغرب، إلا وطمعت بالسيطرة على لبنان لأهميته الاستراتيجية (وسط العالم القديم /القارات الثلاث).

إن اسم لبنان قديم العهد، يرجع إلى فجر التاريخ، عندما نبحث ونكتب عن وطننا نجد أنفسنا مشدودين إلى الماضي باحثين بين أطلاله عن جذورنا الحضارية والفكرية، عن رجال صمدوا في وجه القهر. وبالتالي فلا معنى لوجود أي وطن، ولا ضمانة لاستمراره، بدون فهم صحيح للمقومات الأساسية التي تشكل قاعدة وجوده، هذه المقومات هي الأرض والشعب والثقافة بمختلف مظاهرها التي تعبّر عن الشخصية التاريخية للشعب المقيم على هذه الأرض وتحدّد خصائص هويته الحضارية. أخيراً من لا يقرأ التاريخ لا يعرف حاضره ولن يعرف مستقبله.

لائحة المصادر والمراجع

العربية:

- أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة رينو ودي سلين، باريس، ١٨٤٠.
- العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، طبعة احمد زكي، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٢٤.
- ياقوت، معجم البلدان، المجلد الثالث، ليبسك، ١٨٦٨.
- اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، ١٨٩٢.
- ابن عساكر، التاريخ الكبير، طبعة عبد القادر بدران، المجلد الثالث، دمشق، ١٩٢٧.
- أنيس فريحة، "معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية"، مكتبة لبنان، ١٩٥٦.
- إبراهيم بك الأسود، "دليل لبنان"، طبعة ١٩٠٦.
- أسطفان البشعلاني، "يوسف بك كرم ولبنان"، بيروت، ١٩٢٥.
- أحمد قدري، "الحضارة المصرية"، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٩.
- سميح الزين، "في تاريخ طرابلس"، دار الأندلس، ١٩٦٩.
- عصام خليفة، "أبحاث في تاريخ لبنان المعاصر"، دار الجيل، ١٩٨٥.
- فؤاد قازان، "الإقطاعية ومراحل تطوّرها في دولة المماليك"، مجلة الطريق، أيلول، ١٩٦٩.
- فؤاد شاهين، "الطائفية في لبنان"، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠.
- فيليب حتّي، "تاريخ لبنان"، دار الثقافة، ١٩٧٢.
- فيليب حتي، تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحالي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٥.
- كرم البستاني، "أميرات لبنان"، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠.
- محمد كرد علي، "خطط الشام"، ستة أجزاء، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣.
- محمد كاظم مكي، "الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل"، بيروت، ١٩٦٣.
- معن عرب، "صور حاضرة فينيقيا"، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.
- منير اسماعيل، "تاريخ لبنان الحديث"، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٦٠.

- هولو جودت فرج، "صفحات من تاريخ صور"، ١٩٩٦.
- يوسف الحوراني، "لبنان في قيمه وتاريخه"، و"العهد الفينيقي"، ١٩٧٣.

المصادر الأجنبية:

- Alfred E. Day, Geology of Lebanon, Beirut, 1930
- Cf. Robert H. West in Palestine Exploration Fund Quartely Statement, 1861.
- Charles Combier, Apreçu sur les elimats de la syrie, et du liban, Beirut, 1945.
- Grousset, L'Empire, p 329, Cf. Steven Runciman, A History of the Crusades, vol II, Cambridge 1952.
- George - Samné, La Syrie, Paris, 1920.
- Herodotus, History, BK.I, ch.5, in Arnold J.Toynbee, Greek Historical Thought London, 1924.
- M.J. de Geoje, Mémoire sur la conquête de la Syrie, Leyden, 1900.
- Strabo, Geography, BK, XVI, Ch 2, paragraph 16, Pliny Natural History, BK.V, ch. 17. parag.20. Ptolemy, Geography, BK.V, ch.14.